



مضن أول و أخير

تسنيم عمارة

مقدمة ...

كتبت هذه القصة بفضل الهام الليل
بفضل جمال ظلمته على الجدران.. مما يجعلها لوحة
عرض لكل ما يخالج الخيال ..

<<حقوق النشر محفوظة>>

[1]

يومها كان اول يوم فتحت فيها بصيرتي للدنيا.. يومها
شهدت مرارة ذلك النور الذي شهدته.. كنت اصرخ
باكيا.. الدموع في عيني كالشلال الهادر.. رأيتهم
يبكون ويتحسرون و يلطمون خدودهم، تسائلت لما
هذا البكاء؟ هل كان من الخطأ ان يخرج صندوقي
الجسدي الى الدنيا؟ او اني قد فطرت قلوبهم عندما
بكيت؟

لا!

الاجابة هي اني كنت ابكي وانا في حضان امي التي
توفيت بعد ولادتي تماما.. بكوا لاجل فقد ابنتهم وكنتهم
وبكيت انا لانهم بكوا ولكن كنت اجهل السبب.. توفيت
وهي كانت تضعني بين احضانها، لا ازال اذكر ذلك
الدفء البارد وتلك اليدين الشاحبتين في ذاكرتي.. كان

ذلك حضنها الاول والاخير لي ولكن.. كيف ساكون
انا؟ كيف سأنموا بلا ذلك الحضن الدافء؟ اكتب هذه
المذكرة بقلب آس ومهموم.. و بذاكرة داكنة سوداء
حول الماضي و ما سردوه لي اهلي من ماضيهم
التعس.. خشيت ان يعلمو اني افشي سري للورق
فيذبحوني وقتها لكن لا خوف ما دمت او صدت الباب
وما دمت جالسا قرب شمعة اكتب لكم...

[2]

هل ابدأ السرد؟.. فيما ابدأ يا ترى..؟

حسنا ساحكي لكم عن امي_ حسب ما سردوه لي_
التي كانت اجمل امرأة في المدينة.. كان شعرها
الحريري مسدل على ظهرها و كانت عيناها المحيط
بعينه وجلدها الناصع التي تزينه بالاكسسوارات
والذهب والجواهر و قامتها المنتصبة و.و.و...
كانت عندما تمشي في الشارع تسرق الانظار_ الجميع
كان يحدق بها_ الى ان اتى يوم وخطف بصرها
رجل_ وهو ابي_ اسمر البشرة داكن العينين عسلي
الشعر.. ظلا يرقبان بعضهما.. يتأملان عيونهما
فيقرآن فيهما كل معاني الحب والعشق
ضل خيال كل منهما محفورا في عيون الاخر.. حتى
انهما لم يكادا يناما دون تذكر الجمال الذي رآياه
والحب الذي قرآه...

في اليوم التالي قرر ابي ان يتحدث مع امي وان
يفاتها في حبه و هيامه المكنون والشديد لها فكتب
لها وقال:

فلو كان بيدي لبنيت القارب

لكي ابخر في البحر الغارق

فقد تسأليني اي بحر هو

انما هو حبك وعشقتك يا صبية

كتبها وقلبه كالسد لو اضفت له جرعة ماء لانفجر من
غصة الحب و كتمان الهيام... حل الصباح، فكان في
طريقه الى الجامعة و بيده تلك الورقة التي خطت
عليها مشاعره على امل ملقاها واعطائها اياها.. حتى
انت الصدفة اذ وجدها جالسة على كرسي تحيط به

الحديقة المزهرة غناء جميلة كانت هي كالملاك فوق
كرسي في الجنة... وكان جوارها حقيبتها الصغيرة
فتبادرت لابي فكرة للذهاب والاعتراف...
فجري بسرعة وانتشل الحقيبة و هرب بها.. فصاحت
امي وركضت ورائه .. يال الرشاقة.. هي سريعة و
خفيفة الحركة ..فوضع الورقة فيها و سلمها حقيبتها
واعذر منها ...لكنها غضبت وصفعته هههه.. كانت
صفعة حنونة... رقيقة من يدين ناصعتين ناعمتين..
بعد هذه الصفعة زاد هيامه بها
اما امي...

فبعد استرجاع حقيبتها فتحتها لمعرفة ما ان كان شيء
قد سرق فوجدت الورقة و فتحتها... احست بشعور
يمزج السعادة و التوتر.. كانت تضحك مشاعر و
متجاوبة مع مشاعر ابي.. كانت في قمة السرور بهذه
الرسالة.. كانت تفتحها ليلا لتذكره.. فتذكر ذلك الوجه
الاسمر والشعر العسلي والعيون الواسعة الداكنة
فتذكر رشاقتة في الجري و قامته المستوية

والمنتصبة.. فتذكر اول لقاء.. اول مرة تحس بان
قلبها حي يرزق

تحس بتلك الوردة التي تتفتح في قلبها و تنشر العبق
والعبير في اجوائه...
فقررت كتابة له الرد فقالت:

هل انا القفص الذي وضعت في شراكه

ام انا الوابل الذي اخذ وعيك

هل انا الطاووس لو رفع ذيله

اخذ الابصار والافئدة لا تستقر..

.انما انا الزهرة التي خضعت لك

تفتتح في وجودك وتنغلق بعدمك

كتبتها مع خيال واسع... تتخيل ماذا سيكون شعوره لو
قرأ كلماتها هل سيفرح؟ هل سيعجب بقولها؟

حل صباح يوم تالي... فذهبت هي الاخرى الى
الجامعة حين وقفت على الباب وجدته، احمرت امي
خجلا لمراه واخذت تراجع الورقة وقلبها سيكسر
صدرها من النبض.. كانت مترددة في اعطائه لها
فتظاهرت في المرور جانبه واسقطت الورقة حذو
قدمه.. تفتن لها ابي فتأمل امي بخطواتها الثابتة
وردائها الازرق و شعرها الذهبي ثم فتح الورقة وقرأ
ما فيها من اعتراف بالحب وتجاوب مع مشاعره..
فطار ابي من الفرح بعد قراءة ابياتها.. فراح يردد
حتى حفظها كاملة... يقرأها قبل نومه، في دراسته
حتى في دعائه.. ولم يلبثا حتى اخبرا والديهما على
بعض...

[3]

يا له من حب... حب تميل اليه الافئدة.. وتتوق اليه
اشواق القلب.. لكن-وكما تعودنا انه لكل شيء اجابي
لكن- وجد ما سمي بعراقيل الحب: فان ابواهما رفضا
ان يزوجاهما رفضا تاما نسبة الى الفروقات التي
بينهما في الطبقة الاجتماعية و لون البشرة...

فقالتي جدتي لامي: انا لا اقبل بالفحم الوصال مع
الالماس ابدأ!! ولا ارضى بذوي البساطة الاتحاد مع
ذوي الجاه!!

فردت امي عليها: يا اماه.. ان الحب في قلبي له ولا
لسواه.. فاتركيني مع معشوقي قبل ان انتهي بالنواح..

فنهرتها جدتي قائلة: قلت لا يعني لا!!! انتما كالزيت
والماء لا تليقان ببعضكما... كيف لالمامة جميلة مثلك
ان تعشق حجرا رخيصا مثله؟!؟

فاجابتها امي والدموع في عيناها: لقد قرأت الحب في
نظراته.. فاحسست بحب في كيانه...

فانذرتها الجدة: لو خرجت عن طاعتي و فعلتي ما بدا
لك، فلا انت ابنتي ولا انا امك ولا سماحة لك الى يوم
الدين!!

اما في بيت ابي....

احتدم النقاش بينه وبين جدتي فقالت له: او انت
مجنون؟! كيف يسمح لك ذلك القلب الساذج بالهيام
بفتاة وجهها كالحائط المدهون_ حاشى خلق الرحمان-

قال لها : اه يا اني لو ذقتي حبي لها ولوعتي اليها..
لعذرتيني وتركتيني اغدو اليها.. لو رأيت طللتها
وقامتها المنتصبة.. لاخذتيني وطلبتها لي ..

فقالت له باشمئزاز: يا لك من غبي... فتاة ببياض
اللبن القذر.. بمالها العفن.. تفتن رجلا مثلك.. هل
تدري ما ان كانت معاشرة لغيرك.. هل تضمن
اخلاصها بالمحبة لك..؟!؟!؟

قال لها مع تنهيدة عميقة: اه لو رأيت نظراتها البراقة
لقرأتي فيها حبها ولوعتها لي... لو سمعتي صوتها في
حديثها الي لفهمت ندى رغبته بالتقرب والتودد لي...
لكن اوى اسفاه على فكركم القذر....

فراح كل منهما الى فراشه والوسادة لو كانت ارضا
جرداء لاخرجت من عدنها ونباتها من دموعهما

السخية المختلطة بحسرة الحب والاضطرار الى
الامتثال لامر الوالدين....

(4)

حل الفجر.. خرجت امي.. لكنها ليست على طلتها
المعتادة.. كانت تخرج وكانها الوردية في ريعان
تفتحها.. جذابة.. براقية.. لكنها الان ذابلة ومسكينة.. كل
ما أرادته هو الحب.. كل ما أرادته هو الوصال مع
الحبيب الاسمر... لكن امها حالت بين ذلك.. حالت
بين عشقها وهيامها به...

رأت العماد زرقاء يقطر منها ندى الفجر فتذكرت
عيونها ليلة امس... كيف اسقطت الندى السخي منهما
حسرة على حبها له ... انما هي تريده.. لا تريد
غيره!! اقسمت على ان تمقط الرجال من دونه... لا!
لا! اني لأريده ملكي... لو كنت سلطانة العالم لجعلته
سلطاني و ملكي.. فلا يفارقني لحظة واحدة!! هكذا
اخذا عقلها الطفولي في غياهب الخيال والتفكير
المستمر....

جاءت ساعة الذهاب للمدرسة.. فتزينت وكحلت
المحيط الازرق ثم خرجت مسرعة... لكن قبل
خروجها كتبت له في ورقة:

أواه على الألم الذي مر بي
مزق القلب أيما تمزيقا
إني فوالله لأريدك انت

ولا أريد غيرك ولا اقبل
فهلُم إلي وأخرجني من محبسي
فأنا العصفورة كسرو
جناحي

طوت الورقة وراحت قلبها طوال الطريق حتى
إرتطمت بباب الجامعة فجأة.. إندهشت من وصولها
إلى الجامعة بهذه السرعة فقالت في نفسها: " لعل
الأقدار ستقدر لنا الوصال..."
وبينما هي مارة في الرواق إذ تجد أبي واقفا أمامها
بأحلى الحلل.. فيخرج من الثلج ورود من الخجل
والحياء ... وتمر بجانبه وتسقط الورقة عمدا فيلتقطها
ويقرأها...

ذاب قلب أبي من الحزن عن فراقها وما هو بوجع
الفراق بقليل عنها....

(5)

أما أبي-كما ذكرت مسبقا- فلم يكن بوجع قلبه عن
فراق أمي بقليل.. فقد كان الفراق غصبا وتحت
ضغوطات عقول البيداء القديمة.. كان في غرفته دائما
لا يخرج منها.. يأخذ رسالة أمي التي إعترفت فيها

بحبها أول مرة فتنهمر دموعه لذكرها.. ثم يأخذ
الرسالة الثانية فيزداد بكاء ونحيبا.. يا قلبي لماذا
وقعت في شرك الحب؟ لماذا فتحت أبوابك لها عند
رؤياها لماذا؟! أكل هذا غباء أو سذاجة؟! أنب نفسه
بكل غضب ثم تنهد بعمق وقال : وما ذنبك؟ إنها كانت
رونقا للحياة... وبلسما للروح.. وشفاء للنفس
المشتاقة.. و دواء لآلام الوحدة... وجهها البريء
وكانه ملاك قد تاه الطريق فسقط إلى هذه الدنيا التعسة
بين الحب الهائج و الفكر الساذج...
فلبث يفكر قليلا بحل منها أن يجمعهما الحب ومنها أن
يتخلصا من فكر امهاتهما.. فبادرته فكرة مجنونة وقال
لها :

إني مولع بك ولا اريد فراقك

فهاهي فكرة تشفي

جراحك

هلمي وهي نهرب سوية

نعش بسرور هنيئاً منيا

كتبها مع شجاعة صبيانية مع آمال أنها ستوافق
وتذهب معه إلى البعيد السعيد... حل ضحى الصباح و
جاء وقت الجامعة .. ذهب بسرعة لكي يصل إلى
زهرة الجميلة ويبرها بفكرته المجنونة.. فالتقاها
وياله من لقاء.. كأنه اول الأيام.. في نفس المقعد.. في
نفس الحديقة.. في نفس الحلة والجمال الملائكي
الأخاذ.. فنسى خجله وراح إليها بخطى ثابتة.. فلقى
السلام وهي عليه ما قال... فأهداها الورقة وقال لها
حبذا لو تقرئها وتجيبيني .. واحرصي على ان لا
يقرأها غيرك.. فوافقت وراح كل منهما الى قسمه...
وبعد الدوام عادت أمي فدخلت الحجرة وأقفلتها جيدا
ففتحت الورقة وقرأت... قرأت تلك الرغبة المولعة
بها.. قرأت فتذكرت أنها أيضا تشتاق الى ريحه و
غمازاته المثيرتان.. فوافقت قائلة:

آه يا ليت..

فان القلب عليك في غيض

شوق ولوعة شديدين

فما عندي ما اقول الا نعم ونعمين....

[6]

حل يوم آخر ، ولكنه ليس ككل الأيام ، إنه يوم القرار
الحسم .. إنه يوم سيحدد فيه مصير الحب الكبير إما
أن يتواصل إلى الممات أو أن يموت قبل أن يتواصل

أتى الوقت .. تزينت من تحمل الشاطئ في عيونها
بحلل من ذهب و كأنه الرمال .. ثم جهزت قلبها و
قالت عليّ ذلك .. عليّ بالرحيل .. فإن النفس لو غاب

عنها لأيام تتعطش له .. ونهر حبه الذي في قلبي
سينقطع فيموت الزرع و المرعى .. و ذهبت إلى
الجامعة و في قلبها القلق و الحيرة لأنها لم تقدم على
الهروب من قبل .. كانت قد كتبت حروفها المتقدة بنار
الحماسة و اللوعة الشديتين .. هاهي قد ذهبت إلى
الجامعة .. تمشي بسرعة تارة تقلب الورقة و تارة
تفتحها.. تفكر كيف ستلقاه و متى و تارة تسأل نفسها
عما كانت ستعجبه أو لا ؟ فحدث اللقاء فجأة .. كان
يمشي أمامها بحلة رائعة ، وشعر عسلي لامع ،
والشوكولاتة تغطي جسمه الممشوق .. إنه أسد رافع
صدره واثق بنفسه...نادته.. ها قد سمع صوتها .. ها
قد حانت ساعة الفصل .. أرجو ان توافق.. أرجو ان
توافق .. ردها في ذهنه مع كامل الحماس و الفرح..
ها هي تقترب منه.. تقترب بخطوات الطاووس الذي
يفتن المرء بجماله .. فمدت القمر الناصع و قالت:"
قرأت تلك الشعلة التي تلهب الفؤاد ، فأجبتها علّ
إجابتي تبرد الأجواء ..خذها و اقرأها و أرجو ان

يكتب الله لنا الوصال " فأخذ الورقة و ذهب كل منهما
الى حال سبيله

وفي الليل، قرأ أبي الرسالة فطار قلبه من الفرح و
الشوق

حل فجر يوم الميعاد ، و قد تسالت امي خارج غرفتها
و هربت متأملة المستقبل المزهر أمامها .. فوجدت
أبي في شاحنة قديمة و إنطلقا حيث لا أحد يعلم .. حيث
سيأخذهما المجهول .. لا يعرفان ما سيحصل لهما بعد
هذه الفكرة الجهنمية .. أما في بيوتهم فهذه الأم تندب
حظها والأخرى تلوم و تشتتم: " أنت السبب!! ابنتي
ضاعت مني من فساد تربيتك..." إلى أن وجدا رسالة
منهما تقول: " لا تلوم إحدكما الأخرى .. نحن من
قررنا الهروب بعيدا و الزواج .. إما ان توافقا فنعود
إليكم و نتزوج و نفرح ، و إما أن نتزوج دونكما و
نعيش بعيدا ! و لكما سديد الرأي .. " صدمت الأمان
بهذه الرسالة و رأتا انه لا مفر .. فعاد أبي و أكيد و
كتبا عقدهما و أقاما عرسا تحدث عنه كل المدينة و
ضواحيها .. نعم إنه عرس من بعد حرب أخذت من
الوقت ما أخذت .. و مر عام على زواجهما .. عام غسل
وليس شهر .. من الحب و الوصال و الغزل ، عام من
السعادة حيث بقيت كل الهموم حديثا يستحضرونه
فيضحكون .. لأنهما إنتصرا يعد كل شيء لكن .. لم تدم

هذه السعادة طويلا .. فحمل أمي كان صعبا لدرجة أن
الطبيب قال حرفيا : "لا سبيل للحياة إلا لأحدكما إما
انت أو الولد.." فصدم الجميع .. و ذرف أبي الدموع
وقال : " لا! عليك بالتخلص من الصغير .. لا أريد
خسارتك لا أريد.." فذرفت أمي الدموع ز في وجهها
بسمة فاترة : " لا .. بل يبقى الطفل .. فليكن ثمرة
حبنا .. فليكن إسمك حيا لا مبتورا .. فليعرف صبينا
قصة حبنا .. فليعرف التضحية .. "

وكان وقت الولادة .. و كان يوما اظلما بائساً .. حيث
فارقت أمي الحياة و هي تحضنني .. والكل يبكي
.. يصيح .. خاصة أبي .. الذي راح ينشد و الدموع تملأ
عيناه: " يا ذات البحر لماذا أنجبتيه

ها قد ولد الغلام و عنك أبعديته

يا عائش لم اخلفت بوعدك لي

جاء الغلام للدنيا وقد تركتنا

كانت تلك قصة احمد و عائشة .. القصة التي ستظل
خالدة في ذكراي .. القصة التي لا تموت في ذاكرة اي
بشر .. لا أنت أيها القارئ ولا غيرك ... "



و كان يوماً أظلماً بئساً ... حيث فارقت أُمي الحياة "
وهي تحضنني "

